أم أيمن

رضي الله عنها

obeikandl.com

obeikandl.com

أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ

إنني أتساءل، وأرجو أن يكون لديك جواب لسؤالي.

أليست هناك نساء مبشرات بالجنة؟

وإذا كان الأمر كذلك، فأرجو أن تحدثني عنهن، وأن تقصَّ عليَّ أخبارهن.

قلت: بلى يا بني، هناك عدد من الصحابيات اللواتي بشَّرهن رسول الله ﷺ بالجنة، وقد عَزَمْتُ على أن أخص كل واحدة منهن بليلة لأحدثك فيها عن أهم الحوادث التي عاشتها، وقد اخترت من بينهن أم أيمن؛ لأنها رافقت حبيبنا وسيدنا وقرة عيوننا محمداً ﷺ في طفولته، وعاشت معه أيام اليتم المريرة، بعد أن قضى الله سبحانه وتعالى بوفاة والده عبد الله بن عبد المطلب قبل أن يخرج هو إلى الحياة، ثم رحلت أمه آمنة بنت وهب إلى لقاء وجه ربها، تاركة صغيرها الذي بلغ السادسة من عمره يبكي أمام قبرها بكاء تتصدَّع له القلوب، وتنهار له أشد العزائم، وأسرعت أم أيمن لتحتضن أشرف الخلق، وتضم سيد البشر إلى صدرها، وتمسح بيدها الحانية دموعه الطاهرة، وتخفف من لوعة المصيبة التي فرّقت بينه وبين أمه في أشد اللحظات التي يحتاج فيها إليها.

قال: ولكن من تكون أم أيمن تلك يا أبي؟

قلت: إنها بركة بنت ثعلبة، كانت تساعد السيدة آمنة أم رسول الله ﷺ في شؤون بيتها، وبعد أن انتهت فترة رضاعه ﷺ في بني سعد، عادت حليمة السعدية التي كانت ترضعه به إلى أمه، فقامت أم أيمن بحضانته ورعايته وتدبير شؤونه إلى جانب أمه.

وذات مرة أرادت آمنة أن تزور أهلها في يثرب فاصطحبت في تلك الزيارة ابنها الصغير محمداً ﷺ وأم أيمن، وبينما هي في طريق العودة فاجأها المرض عند الأبواء قريباً من مكة، ولم تتمكن من متابعة الطريق فتوفيت، ودفنت في ذلك المكان، ولم يكن أمام أم أيمن إلا أن تحمل الصغير المفجوع، ووصلت به إلى بيت جده عبد المطلب وروت له ما جرى لآمنة، فسألها أن تقيم معه في بيته لترعاه كما كانت تفعل في حياة أمه.

كانت أم أيمن تعامله أحسن معاملة، غير أنها بعد وفاة أمه ضاعفت جهودها، وأغدقت عليه من عطفها وحنانها، ما خفف عنه لوعة فراق أمه، ومنحه الإحساس بأنه لم يفقدها، ولم يجد حرجاً بمناداتها: يا أمَّه.

وعاش اليتيم الصغير في بيت جده عبد المطلب بإشراف أم أيمن معززاً مُكرَّماً محاطاً بأحسن رعاية وأكرم عناية، غير أن المنية قد أسرعت إلى جده عبد المطلب الذي شعر بدنو أجله فأوصى ابنه أبا طالب بكفالته.

وتوفي عبد المطلب، وانتقل الحبيب الأعظم، وحاضنته أم أيمن إلى بيت أبي طالب ولم يجد في مسكنه الجديد إلا الترحيب والحفاوة، وكانت فاطمة بنت أسد زوج عمه أبي طالب تبالغ في إكرامه، والعطف عليه، حتى قال عنها: «**لم أُلْقَ بعد**

أبي طالب أبرَّ بي منها».

ولكن منزلة أم أيمن كانت عنده أكبر؛ لأن إحساسه تجاهها إحساس الولد بأمه، وكانت تخدمه في بيت أبي طالب بنفسها، وكان ﷺ يقول عنها: «**هذه بقية أهل بيتي**».

فهنيئاً لأم أيمن تلك الشهادة التي حصلت عليها من بيت النبوة، وتلك المرتبه الرفيعة التي أدركتها عند خاتم المرسلين.

قال: وما الذي حصل للحبيب اليتيم بعد ذلك يا أبي؟

قلت: بدأ ﷺ ينمو ويترعرع، وأخذ عمه أبو طالب يصحبه في بعض سفراته التجارية.

وسمعت السيدة خديجة بنت خويلد عن أمانة سيدنا محمد ﷺ وصدقه واستقامته، فقررت إرساله إلى الشام في تجارة لها، وأوعزت إلى غلامها ميسرة بمرافقته.

وحين عادت القافلة روى ميسرة لسيدته ما لقي من حُسْن معاملة سيدنا محمد ﷺ وأمانته، وكيف كانت الملائكة تظلله لتحميه من حر الشمس، فقررت أن تستدعيه وتطلب إليه أن يخطبها.

وبعد أن تم الزواج الميمون، اطمأنت أم أيمن إلى أن محمداً ﷺ أصبح في رعاية سيدة كريمة لم تبلغ مكانتها أيَّة سيدة من نساء قريش، لذلك قررت أن تتزوج هي أيضاً، وتأخذ حظها من الحياة الدنيا، وتقدم عبيد بن زيد أحد بني الحارث بن الخزرج لخطبة أم أيمن، فوافقت أم أيمن على هذا الزواج، بعد أن استأذنت الحبيب الأعظم الذي بارك تلك الخطوة وسُرّ بها سروراً عظيماً.

كان هَمُّ أم أيمن ينصرف إلى رعاية المصطفى ﷺ والاهتمام بشؤونه، فلما اطمأنت عليه، وتأكدت من استقراره بزواجه من سيدة قريش الأولى، وجدت أن أَوْلى شيء في حياتها قد تحقق، ولذلك كانت الخطوة الثانية أن تبحث عن استقرارها وإنشاء أسرة لها.

وتزوجت أم أيمن من عبيد، وأثمر هذا الزواج عن ولادة أيمن، وكانت فرحة أبويه به كبيرة.

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى رسوله سيدنا محمد ﷺ برسالة الإسلام، وبدأ يدعو إليه سراً، ولمَّا أمرَهُ الله بإعلان الدعوة إلى الدين الجديد لقي من قريش عداوة شديدة ومعارضة كبيرة لا سيما من أهله وأقاربه، ووقف عمه أبو طالب وزوجه خديجة إلى جانبه وكانا له خير نصيرين، وكانت خديجة أولى الملبين لنداء الإسلام، وثابر أبو طالب على مؤازرته والدفاع عنه بكل ما أوتي من عِزٍ وجاه؛ لأن قريشاً كانت تحفظ لأبي طالب مكانته الرفيعة ورئاسته وتُكرِمُهُ أشد الإكرام.

وأسلمت أم أيمن وزوجها عبيد بن زيد وأخذت قريش تُلحق الأذى بكل من اتبع سيدنا محمداً ﷺ، وترك دين آبائه وأجداده، وكان رسول الله ﷺ في مَنَعَةٍ من عمه أبي طالب ولكنْ حدث ما لم يكن في الحسبان، حين فقد رسول الله ﷺ أحب نصيرين وأعز ملاذين لديه، لقد ماتت أم المؤمنين خديجة وكان أبو طالب قد سبقها، وبرحيله استطاعت قريش أن تنزل الأذى برسول الله ﷺ، وتنال مبتغاها من إزعاجه وقهره وإيلامه.

ولما اشتدت وطأة قريش على المسلمين أذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى يثرب كلما وجدوا فرصة للتسلل ليلاً في

غفلة من رقباء قريش وسفهائها، وذلك؛ لأن قريشاً كانت تحبس فتيانها ممن تبعوا دين الإسلام وتعذبهم حتى يعودوا عنه إلى دينها وآلهتها.

وفي يوم قائظ اشتد حره، قررت أم أيمن الخروج إلى المدينة المنورة مُهَاجِرَة، وكانت صائمة.

خرجت أم أيمن بغير زاد ولا ماء، وبدأ الحر يرهقها، والعطش يشتد عليها حتى إذا بلغت الرَّوْحَاء ـ بين مكة والمدينة ـ خارت قواها وذهب جَلَدُها، وأخذتها إغفاءة من فرط التعب، وخلال نومها تَدَلَّى لها دلو من السماء بحبل أبيض حتى أصبح فوق صدرها، وأسرعت تتناوله، ثم شربت وشربت حتى ارتوت.

وتُحَدِّث أم أيمن الناس فتقول: ما أصابني بعد ذلك عطش، ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر، فما عطشت.

نعم يا بني، لقد عرف الله فضلها، وحفظ لها قدرها، فأدلى لها ما رَوَّى به ظمأها، وما إخال ذلك إلا تكريماً لها؛ لأجل ما صنعت برسول الله ﷺ حين ربته صغيراً، وتبعت رسالته كبيراً.

ولما أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، كان في استقباله أهلها مع المهاجرين الذين سبقوه في مغادرة مكة، وتعاون المهاجرون مع إخوانهم الأنصار لإشادة المسجد النبوي الشريف الذي أمرهم ببنائه رسول الله ﷺ، حتى إذا اكتمل بنيانه أخذ المسلمون يؤمونه لئلا تفوتهم الصلاة خلف رسول الله ﷺ،

فإذا نادى مناديه للخروج إلى الجهاد لم يتخلّف أحدٌ عن تلبية ندائه رغبة في إحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة.

ولما كان يوم خيبر خرج عبيد بن زيد مع رسول الله ﷺ وأصحابه المسلمين لمجاهدة اليهود، وإجلائهم عن خيبر لِغَدْرهم، أما زوجه أم أيمن فقد خرجت مع عدد من الصحابيات الطاهرات لا ليقاتلن، ولكن لمداواة الجرحى وإرواء العطاش، وإعداد الطعام للمقاتلين.

كان سرور أم أيمن بأدائها لهذا الواجب قد بلغ الغاية، وكانت سعادتها بغير ما حدود.

وانجلت المعركة عن انتصار المسلمين، وراحت أم أيمن تبحث عن زوجها عبيد لتشاركه فرحة المسلمين بهزيمة اليهود، ولكن أنَّى لها أن تدرك مرامها؟! لقد كان عبيد أحد الفائزين بالشهادة، وأصبحت أم أيمن أَيِّماً، ولما علم رسول الله ﷺ بالمصاب الذي حل بمربيته، حزن؛ لأجلها، وزارها مواسياً لها، وكرر زيارته لها، ولم تستطع أم أيمن أن تخفي عن رسول الله ﷺ ملامح الحزن التي ملأت نفسها، وفي إحدى جلساته ﷺ مع أصحابه الكرام، خطرت بباله أم أيمن فقال لهم:

«من سرّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن». وكان حِبُّ رسول الله ﷺ زيد بن حارثة قد طلّق زوجه السيدة زينب بنت جحش ابنة عمة رسول الله ﷺ بعد أن أصبح العيش بينهما مستحيلاً.

وما إن سمع زيد قول رسول الله ﷺ، حتى عزم على نيل شرف الزواج من أم أيمن قبل أن يسبقه سواه ولم تكن أم أيمن

من ذوات الجمال، بل على العكس تماماً، كانت سوداء البشرة، ولها أنف أفطس، ولكن كان فيها شيئان مغريان بالاقتران بها فاسمها: بركة، وكنيتها: أم أيمن، وأي شيء يرجى بعد اليمن والبركة من وراء الزواج؟

وبارك رسول الله ﷺ هذا الزواج الذي جمع بين اثنين من أحبائه المقربين، وعاش زيد مع أم أيمن أسعد أيام الحياة، وأثمر زواجهما المبارك بخير ثمرة، ورزق حِبُّ رسول الله ﷺ بغلام سماه: أسامة، وأصبح أسامة الحِب بن الحِبِّ وعاش أسامة مع أخيه أيمن في كنف والديهما، ترعاهما عناية الله ومحبة رسول الله ﷺ.

وظلت السعادة ترفرف بأجنحتها على تلك الأسرة الكريمة حتى كانت غزوة «مؤتة» حيث جهّز رسول الله ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، سُمي: بجيش الأمراء، وذلك لمحاربة أعداء الله من الروم.

وكان رسول الله ﷺ يجعل على كل جيش يبعثه أميراً واحداً، إلا يوم «مؤتة» فقد جعل له ثلاثة أمراء، وأخبر أن الأمير الأول: زيد بن حارثة، فإنْ أصيب فالأمير الثاني: جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فالأمير الثالث: عبد الله بن رواحة.

والتقى الجمعان، وكان لقاءً غير متكافىء من حيث العدة والعدد والعتاد، واستشهد الأمراء الثلاثة وفق الترتيب الذي حدده لهم رسول الله ﷺ قبل خروجهم إلى القتال، وفي المدينة أبلغ الوحي رسول الله ﷺ بمجريات المعركة، ووقف رسول الله ﷺ ينعي للمسلمين حِبَّه زيداً وجعفراً وابن رواحة، وهكذا تأيَّمت أم أيمن للمرة الثانية، ولم يكن أمامها إلا أن تسترجع

وتصبر وتستغفر.

ولم تكن تلك نهاية المطاف، فحين خرج رسول الله ﷺ إلى لقاء المشركين في غزوة «حنين» خرج معه أيمن ابنها من زوجها الأول عبيد بعد أن اشتد عُوده واكتمل شبابه.

وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يسقط أيمن شهيداً ويتبع طريق أبيه، وزوج أمه، وصبرت بركة على قضاء الله، وقد أعانها على ذلك إيمانها الراسخ الصلب الذي لا تزعزعه الجبال، والصبر الذي غرسه في صدرها سيد الخلائق والرجال ﷺ.

لكن صبر أم أيمن قد انهار، وعزمها القوي قد خار، يوم نعي إليها سيد الكائنات، وأشرف المخلوقات، سيدنا محمد ﷺ، فقد حزنت عليه أشد الحزن، وسكبت لفقده أغزر العبرات.

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه، بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يُبكيك؟ ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ.

فقالت: ما أبكي أَلَّا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها. [صحيح مسلم رقم ٢٤٥٤/ ١٠٣].

وقد أُثر عنها، أنها قالت يوم نعي إليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي تبكي: اليوم وَهَى الإسلام ـ أي: ضعف ـ.

وفي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه كانت أم أيمن قد دخلت مرحلة الشيخوخة ونال منها الكِبَرُ، فجاءها هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، ورجعت نفسها إلى ربها راضية مرضية، فقد آن لها أن ترتاح من رحلة العمر الطويلة مع العناء والأحزان.

رحم الله بركة أم أيمن وأم أسامة حِبِّ الحِبِّ، ولَقَّاهم نَضْرَةً وسروراً، مع المتقين الأبرار، من الصحابة الأخيار.

obeikandl.com